﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١٢٦ لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ١٢٧﴾ [آل عمران: 126 - 127]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

توضيح الغاية من المدد بعد ذِكْرِهِ وذكر أسبابه

لَمَّا كان ذِكْرُ الملائكة والتَّدرُّج في ذكر العَدَدِ سببًا لأنْ تَتَعَلَّقَ النُّفوس بالأسباب؛ قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ﴾؛ فَوضَّح الغَايَةَ مِنَ المدَدِ، وجَلَّى لَهُمْ حَقيقَةَ النَّصْرِ والظَّفَرِ ومَصْدَرَهُ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بُشۡرَىٰ﴾: البشرى اسم من البشارة، وهي الإخبار بما يسرُّ، ولا يقع في الشَّرِّ إلَّا على سبيل التَّهكُّم، فإذا أطلقت؛ فالبشارة بالخير، والنِّذارة بغيره، وقيل: تستعمل في الخير والشَّرِّ؛ لأنَّ البشارة: خبر يتغيَّر له البشر، وأصلُ البُشرى: ظهورُ الشَّيءِ مع حُسنٍ وجمالٍ، وذلك يكون في الشَّرِّ، كما يكون في الخير، والمعنى هنا: خَبَرٌ بِحُصُولِ مَا فِيهِ نَفْعٌ وَمَسَرَّةٌ لِلْمُخْبَرِ بِهِ[1].

2) ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ﴾: الطُّمأنينة والاطمئنان: سكون بعد انزعاج، يقال: اطْمَأَنَّ الرَّجل اطمِئنانًا وطمَأنينَةً، أي: سكن، وأصل طمن: يدلُّ على السُّكون، واطمأنَّ إليه: سكن إليه، ووثق به، والنَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ: الَّتِي اطْمَأَنَّتْ بالإيمانِ، وأَخْبَتَتْ لربِّها، وَرجل فِيه تَطَامُنٌ، أَي: سكونٌ ووقارٌ[2].

3) ﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا﴾: أي: ليُهلك جماعة أو طائفة منهم، والطَّرَفُ:

(1) الخليل، العَيْن، والأَزْهَرِيُّ، تَهْذيبُ اللُّغَةِ، وابْنُ عَبَّادٍ، المُحيطُ: (بشر).
(2) الجوهري، الصِّحاح، والزَّمخشري، أساس البلاغة، والزبيدي تاج العروس: (طمن).

الطَّائفةُ مِنَ النَّاسِ، وأصْل القطع: الفَصْل، وإبانةُ شيءٍ من شيء، وطرَف الشَّيء: جانِبُه، وأصْله: حدُّ الشَّيءِ وحَرْفه[1].

4) ﴿يَكْبِتَهُمْ﴾: يَصرَعهم لوجوهِهم، ويُهلِكهم، والكَبْتُ: الصَّرْعُ، يقال: كَبَتَه يَكْبِته كَبْتًا، وكَبَتَهُ اللّه لوجهِه، أَي: صرعَه لوجهِه، وَيُقَال: يكبتهم، يغيظهم، ويحزنهم، وأصل الكَبْت: الْإِذْلَال وَالصَّرْف عَنِ الشَّيْءِ، يُقَالُ: كَبَتَ اللَّهُ الْعَدُوَّ يَكْبِتُهُ؛ إِذَا صَرَفَهُ، وَأَذَلَّهُ، يُصِيبهُمْ بِغَمٍّ وَكَمَدٍ، فيصرعهم، أو يصرفهم[2].

5) ﴿فَيَنقَلِبُواْ﴾: فيَنهزِموا مُنقطِعي الآمال، والانقلابُ: الانصرافُ، ورجوعُ القَهْقَرى، وقلبُ الشَّيءِ: تصريفُه وصرْفُه عن وجْهٍ إلى وجه[3].

5) ﴿خَآئِبِينَ﴾: محرومين، يدُلُّ فعل (خيب) في أصل اللُّغة على عدم فائدةٍ وحرمان، والخَيْبَةُ: هي بمعنى: الحرمان والخُسران، فوت الطَّلب، يُقال: خاب يخيب؛ إذا حُرِم، ولم ينل ما طَلب، والمعنى هُنا: لم يدركوا ما طلبوا[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الإمداد والنَّصر بُشرى من الله للمؤمنين، وإهلاك للكافرين

وما جعل اللّه هذا العون، وهذا الإمداد بالملائكة إلَّا خبرًا سارًّا لكم، ولتسكن قلوبكم به، وتطيب بوعد اللّه لكم، وما النَّصر إلَّا من عند اللّه العزيز الَّذي لا يُغالبه أحد، الحكيم في تدبيره وفعله، وهذا النَّصر الَّذي تحقَّق لكم في غزوة بدر أراد به أن يُهلك طائفة من الَّذين كفروا بالقتل، ويخزي طائفة أخرى، ويغيظهم بهزيمتهم، فيرجعوا بفشل وذلٍّ وعارٍ[5].

(1) الرَّاغِبُ، المُفْرداتُ، وابن منظور، لسان العرب: (طرف)
(2) الرَّاغِبُ، المُفْرداتُ، وابن فارس، مقاييس اللغة: (كبت).
(3) الرَّاغِبُ، المفردات: (قلب) والكفوي، الكليات، ص: 993.
(4) الرَّاغِبُ، المفردات: (خاب)، والسمين، عمدة الحفاظ: (خيب).
(5) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 91، ونخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 66.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

أثر تنوُّع معاني (الواو) في سياق الكلام وما يستدعيه النِّظام:

فقد قيل: إنَّ الكلام في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ﴾ مبتدأ غير داخل في حيِّز القول، مَسوق من جنابه تعالى؛ لبيان أنَّ الأسباب الظَّاهرة بمعزل عنِ التَّأثير، وأنَّ حقيقة النَّصر مُختصٌّ به ﷻ، ليثق به المؤمنون، ولا يقنطوا منه عند فقدان أسبابه وأماراته، وهو معطوف على فعل مُقدَّر ينسحب عليه الكلام، ويستدعيه النِّظام، فكأنَّه قيل عقيب قوله تعالى: ﴿يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥﴾، فأمدَّكم بهم، وما جعله الله إلَّا بشرى[1].

بيان أنَّ النَّصر حاصل بفضلٍ من الله ولو فقدت أسبابه وأماراته

يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ جُمْلَةُ ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ﴾ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنِ اسْمِ الْجَلَالَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ﴾، وَالْمَعْنَى: لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ حِينَ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ مَا وَعَدَكَ اللَّهُ بِهِ، فِي حَالِ أَنَّ اللَّهَ مَا جَعَلَ ذَلِكَ الْوَعْدَ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ، وَإِلَّا فَإِنَّهُ وَعَدَكُمُ النَّصْرَ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ﴾ [الأنفال: 7]، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْوَاوُ لِلْعَطْفِ عَطْفَ الْإِخْبَارِ عَلَى التَّذْكِيرِ وَالِامْتِنَانِ[2].

بيان تعدُّد نعم الله على عباده المؤمنين وتنوُّعها تذكيرًا بفضل الله ومنَّته عليهم

سِرُّ عَوْدِ ضمير الغيبة على الإمداد المُتقدِّم:

الضَّمير في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ﴾ هو للإمداد، أو للوعد بالإمداد أو للنَّصر، والأوْلى جعله للإمداد، فإنَّ الإخبار بوقوع النَّصر على الإطلاق، وتذكير وقته، وحكاية الوعد بوقوعه على وجه مخصوص، هو الإمداد بالملائكة مرَّة بعد أخرى[3].

استحضار الإمداد في أذهان المؤمنين

ولكون الإمداد قد ذُكر مرَّتين، وكون الملائكة وأعدادهم ونصرهم للمؤمنين قائمًا عليه، أصبح أصلًا في ذلك جديرًا بأن يشار إليه،

(1) أبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/81.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/77.
(3) أبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/81.

وفائدة إرجاع الضَّميرين إليه استحضاره في أذهان المؤمنين في معرض مخاطبتهم، وذكر منَّة الله عليهم بالنَّصر ومقدِّماته[1].

العناية بالمخاطبين والتَّنويه بهم

إظهار الاسم الجليل في مقام البشارة:

إِظْهَارُ اسْمِ الْجَلَالَةِ فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ لِلتَّنْوِيهِ بِهَذِهِ الْعِنَايَةِ مِنَ اللَّهِ بِهِمْ، خصوصًا أَنَّ الْخِطَاب لِلنَّبِيِّ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ[2].

بلاغة القصر بالاستثناء في الإخبار عن البشرى وطمأنة القلوب:

تبيان سبب الإمداد تعجيلًا للبشارة وتطمينًا للنُّفوس

الْبُشْرَى: اسْمٌ لِمَصْدَرِ بَشَّرَ كَالرُّجْعَى، وَالْبُشْرَى: خَبَرٌ بِحُصُولِ مَا فِيهِ نَفْعٌ وَمَسَرَّةٌ لِلْمُخْبَرِ بِهِ فإنَّ الله لمَّا وعدهم بالنَّصر أيقنوا به فكان في تبيين سببه، وهو الإمداد بالملائكة طَمْأنة لنفوسهم؛ لأنَّ النُّفوس تركن إلى الصُّوَر المألوفة[3]، قال هنا قاصرًا للأمر عليه: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾[4].

فالاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ مفرَّغ، والاستثناء المفرَّغ من أعمِّ العلل، أي: ما جعل الله إمدادكم بإنزال الملائكة لشيء من الأشياء إلَّا للبشارة لكم بأنَّكم ستنتصرون على أعدائكم[5]، وطمأنة القلوب، وأسلوب القصر هنا إضافيٌّ، وهو قصر صفة على موصوف، حيث قصر الموصوف، وهو الإمداد على البشارة، ففي القصر هنا نفيٌ لجميع الغايات، وإثباتٌ لغاية البشارة الَّتي تطمئن النُّفوس المؤمنة، وتسكن عند سماعها.

فأفاد أسلوب القصر قوَّة في التَّعبير؛ لأنَّ في النَّفي مع الاستثناء من قوَّة الدَّلالة ما ليس في غيره.

ولَمَّا كان السِّياق العام هو سياق غزوة أحد، وقد كثر فيه

(1) الخنين، النظم القرآني، ص: 111.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/77.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/78.
(4) البِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَرِ5/58.
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 2/253.

المصاب، وكان سياق غزوة بدر سياقًا تابعًا؛ جيء بالمتعلَّق ﴿لَكُمْ﴾ لتخصيصه بهم، وتقوية الحكم، فتزيد النُّفوس اطمئنانًا إذا هي أخذت بأسباب النَّصر، كما حصل في بدر، كما أنَّ السِّياق سياق مُواساة ومسح على القلوب بعد المصاب[1].

فصرَّح أنَّ البُشرى إليهم مع ظهورِ ذلك؛ للدَّلالةِ على تَكرمةِ الله تعالى إيَّاهم بأنْ بشَّرهم بُشرى لأجْلهم[2].

السِّرُّ في تقديم البُشرى على الطُّمأنينة:

بيان أنَّ الطُّمأنينة أثر من آثار البُشرى

تقديم البُشرى على الطُّمأنينة؛ لكون الأخيرة قائمة على البشارة ناتجة عنها، فإنَّ الملحوظ في طباع الخائف أنَّ قلبه يضطربُ، ويَقْلَقُ، ولا يهدأُ له بال، حتَّى تُساق البُشرى إليه، فالبُشرى رسولُ الطُّمأنينة إلى القلب ومفتاحها؛ ولهذا قُدِّمت عليها، والتَّوجُّه بهذه البشرى للمؤمنين وذِكْرُهُمْ عبر ضمير الخطاب تَشْريف لهم، وإيذان باستحقاقهم لها، وفيه إشعارٌ بأنَّهم مُحتاجون إلى ذلك غير مُسْتغنينَ عنه[3].

دلالة التَّذييل بذكر النَّصر بطريق القصر:

غرس الاعتماد على الله في قلوب المؤمنين، وتفويض أمورهم إليه

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ تذييل جارٍ مجرى المثل جاء لتقرير مضمون ما قبله أي: إنَّ كلَّ نصر هو من عند الله، لا من الملائكة[4]، فالمقصود من الآية الكريمة: غرس الاعتماد على الله في قلوب المؤمنين، وتفويض أمورهم إليه، وبيان أنَّ النَّصر إنَّما هو من عند الله وحده، وليس من الملائكة، أو من غيرهم؛ لأنَّ الملائكة أو غيرهم أسباب عاديَّة بمعزل عن التَّأثير، إلَّا إذا أراد الله ذلك، فهو الخالق للأسباب والمسبِّبات؛ حتَّى يعلم علم اليقين أنَّ ما كان هو

(1) فاضل السامرائي، التعبير القرآني، ص: 71.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/78.
(3) أبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/81.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/78.

من الله تعالى، وهو النَّصر، ومقدِّماته الَّتي هيَّأها الله تعالى بين يدي عباده: من قذف الرُّعب في قلوب الأعداء، وإنزال الملائكة من السَّماء وسواها ممَّا حصل في بدر، فكلُّ ذلك من الله تعالى وحده، ولا يملكه أحد سواه؛ ولهذا فلا ينبغي أن تركن نفس المؤمن إلَّا إليه، ولا تعتمد إلَّا عليه، وهذا أصل من أصول العقيدة[1].

ويمكن أن يقال: إنَّ هذا القصر جيء به للاحتراز من وقوع الشَّكِّ في أنَّ النَّصر من ذلك المدد الملائكيِّ، فطرد ذلك بأقوى أسلوب بلاغيٍّ لائق، وهو القصر بما وإلَّا، فيكون بهذا الاعتبار من قبيل قصر القلب: الَّذي فيه ردٌّ على من يتوهَّم أنَّ النَّصر من عند الملائكة المنزلين، فأشار بالقصر إلى لزوم إفراده بالتوكُّل، يقول ابن جرير: "وما ظفركم؛ إن ظفرتم بعدوِّكم إلَّا بعون الله، لا من قِبَل المدد الَّذي يأتيكم من الملائكة، يقول: فعلى الله فتوكَّلوا، وبه فاستعينوا، لا بالجموع وكثرة العدد، فإنَّ نصركم إن كان؛ إنَّما يكون بالله وبعونه، ومعكم من ملائكته خمسة آلاف، فإنَّه إلى أن يكون ذلك بعون الله وبتقويته إيَّاكم على عدوِّكم، وإن كان معكم من البشر جموع كثيرة أخرى، فاتَّقوا الله، واصبروا"[2].

بيان أنَّ النَّصر بيد العزيز النَّاصر لمن يشاء، الحكيم العالم بمن يستحقُّ النَّصر

دلالة ختم التَّذييل بوصف العزَّة والحكمة للرَّبِّ الجليل:

ذُكِرَ وصفا العَزِيزِ الحكِيمِ هُنا؛ لأنَّهما أَوْلى بالذِّكر في هذا المقام؛ لأنَّ العزيزَ يَنصُر مَن يُريد نصره، والحكيم يَعْلَمُ مَن يَستحِقُّ نصرَه، وكيف يُعطاه[3].

بلاغة اختلاف النَّظم في المتشابه اللَّفظي بين سورتي آل عمران والأنفال:

فقد وردتْ في سورةِ الأنفال آيةٌ أُخرى مشابهةٌ لهذه الآيةِ الَّتي في آل عمران، وهي قولُه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٠﴾ [الأنفال: 10]، لكن جاءَ التعبيرانِ فيهما بعضُ الاختلاف، ففي هذه الآية

(1) الخنين، النظم القرآني، ص: 111. بتصرف.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 7/190.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/78.

قال: ﴿بُشۡرَىٰ لَكُمۡ﴾، بينما في آيةِ الأنفالِ لم يذكُر الجارَّ والمجرور لَكُمْ، وفي هذه الآية قال: ﴿قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾، فأخَّر الجارَّ والمجرور بِهِ، بينما قدَّمه في الأنفال، فقال: ﴿بِهِۦ قُلُوبُكُمۡ﴾، وفي هذه الآية قال: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١٢٦﴾، وقال في سورةِ الأنفال: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٠﴾ [الأنفال: 10]، ومن الحِكَم في هذا التغايُرِ ما يأتي[1]:

أوَّلًا: ذكر الجار والمجرور ﴿لَكُمۡ﴾ وحذفه:

ففي آية آل عمران تقدّمها الإخبار عن عدوِّهم ﴿وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ﴾، فاختلط ذكر المؤمنين والكافرين، فجُرِّدت البشارة للمؤمنين، وجيء بضمير خطابهم متَّصلًا بلام الاستحقاق ﴿لَكُمۡ﴾، أمَّا آية الأنفال؛ فلم يتقدَّمها إلَّا ذكر المؤمنين، كما وردت في قوله: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ﴾ [الأنفال: 10]، فلم تذكر اكتفاء بما سبق[2]، فـ ﴿لَكُمۡ﴾ في آل عمران جاءت على الأصل في الذِّكر، والثَّانية قد تقدَّمتها ﴿لَكُمۡ﴾، فأغنت عن إعادتها بلفظها ومعناها، وهي قوله: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾، فلمَّا قال: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾؛ علم أنَّه جعل البشرى لهم، فأغنت لكم الأولى بلفظها ومعناها عن الثَّانية[3]، كما أنَّ في ذكرها زيادة في المنَّة، كقوله: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ١﴾ [الشرح: 1]؛ لأنّ سياقها الامتنان بنعمة النَّصر مع القلَّة والضَّعف، أمَّا آية الأنفال؛ فمسوقة للعتاب لكراهية الخروج إلى بدر في أوَّل الأمر، فجُرِّدت من ﴿لَكُمۡ﴾؛ إذ كانت للنَّبيِّ، ومن لم يتردَّد من المؤمنين[4]، مع مراعاة مناسبة الإيجاز والإطناب في كلٍّ من الآيتين[5].

ثانيًا: تقديم القلوب على ﴿بِهِۦ﴾ وتأخيرها عنه:

أمَّا التأخير في آية آل عمران؛ فهو على الأصل، وأمَّا تقديم ﴿بِهِۦ﴾ في الأنفال؛ فلمراعاة الحالة النَّفسيَّة للمخاطبين، والهاء عائدة على المدد، وهو الأهمُّ عندهم، فإنَّ

(1) الإسكافي، درة التنزيل: 1/389 - 395، الكرماني، البرهان، ص: 92، وابن الزُّبير، ملاك التأويل: 1/89 - 90.
(2) ابن الزُّبير، ملاك التأويل: 1/89.
(3) الإسكافي، درة التنزيل: 1/389، والأنصاري، فتح الرحمن ص: 72، والكرماني، البرهان، ص: 92.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/78.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 4/460.

المعتمد بتحقيقه عند المخاطبين إنَّما هو الإمداد بالملائكة[1]؛ لأنَّها نزلت في غزوة بدر، والدِّماء لم تجفَّ بعد، فالخطاب فيها مؤسَّس، رُوعي فيها مقتضى الحال، وآية آل عمران تذكير بحكاية حال مضت؛ إذ هي مدنيَّة متأخِّرة في النُّزول عن غزوة بدر، وفرق بين ما يؤسَّس وما يحكى؛ لذلك جاء التَّعبير فيها على الأصل[2]، ثُمَّ إنَّه خصَّ البشرى بهم في آل عمران، وقدَّم ﴿قُلُوبُكُم﴾ على الإمداد، فقال: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ للمواساة والطُّمأنة؛ إذ المقام مقام مسح للقلوب ومواساة وطمأنة، فجاء ذكر القلوب في موضعه، ولم يتقدَّم المتعلَّق؛ لأنَّ المقام مقام تسكين القلوب، وجبر للمصيبة، فكان تعلُّق الفاعل بفعله أشدَّ من الإشارة إلى المدد[3]، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ [آل عمران: 139، 140]، أمَّا آية الأنفال؛ فالمقام في ذكر موقعة بدر، وانتصارهم فيها، ودور الإمداد السَّماوي في هذا النَّصر؛ لذلك قدَّم ﴿بِهِۦ﴾ على القلوب، ولمعنى الاختصاص أيضًا، أي: قلوبكم لا قلوب غيركم، وفيه تعريض بما اعتراهم من الوجل من الطَّائفة ذات الشَّوكة[4]، وأيضًا لمزاوجة ﴿قُلُوبُكُم﴾ مع ﴿لَكُمْ﴾[5].

ثالثًا: تعريف الفاصلة وتنكيرها مع التَّوكيد في ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ و﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾:

سورة الأنفال تقدّمتها وعودٌ جليلة: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾، ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنفال: 7- 8]، فهذه وعود لم يتقدَّم إفصاح بمثلها في آية آل عمران، فناسبها تأكيد الوصفين العظيمين من أفعاله، وناسب آية آل عمران ورودهما تابعتين دون تأكيد[6]، كما أنَّ التَّقرير والتَّأكيد في آية الأنفال لازمان في ذلك الموقف الَّذي كان يقفه المسلمون في قلَّتهم، إزاء الجيش القويِّ الزَّاحف عليهم، فإذا جاءتهم البشرى بنصر الله، محمولة بما وعدهم على لسان نبيِّه، ثم أُتبعت هذه البشرى بالتَّذكير بعزَّة الله وحكمته في

(1) ابن الزُّبير، درة التنزيل ص: 38، والأنصاري، فتح الرحمن ص: 72.
(2) المطعني، خصائص التعبير القرآني: 2/169.
(3) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 429.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/276.
(5) الكرماني، البرهان، ص: 92.
(6) ابن الزُّبير، ملاك التأويل: 1/89، والكرماني، البرهان، ص: 92.

هذا الأسلوب المؤكَّد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾ [الأنفال: 10]، كان لذلك وقعه في القلوب وأثره في النُّفوس، أمَّا في آية آل عمران، فالشَّأن مختلف؛ لأنَّها حديث عن أمر وقع، رأى منه المسلمون رأي العين كيف كانت عزَّة الله، وكيف كانت حكمته، فيكفي هنا أن يُذكر الله وعزته وحكمته ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ دون توكيد؛ إذ كان يعيش المسلمون مع الحدث الواقع الَّذي هو أثر من آثار عزَّة الله وحكمته[1].

دلالة لام التَّعليل على مُتعلَّقها:

تعليل القصر السَّابق، وإثبات العزَّة والحكمة لله ﷻ في أفعاله وتشريعاته

فقد اختلف أهل العلم في متعلَّق لام التَّعليل[2] في قوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾، وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنْ تَتَعَلَّقَ بِأَقْرَبِ مَذْكُورٍ، وهو: العامل في ﴿عِندِ ٱللَّهِ﴾، وَهُوَ خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ، كَأَنَّ التَّقْدِيرَ: وَمَا النَّصْرُ إِلَّا كَائِنٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، لَا مِنْ عِنْدِ غَيْرِهِ، لِأَحَدِ أَمْرَيْنِ: إِمَّا قَطْعُ طَرَفٍ مِنَ الْكُفَّارِ بِقَتْلٍ وَأَسْرٍ، وَإِمَّا بِخِزْيٍ وَانْقِلَابٍ بِخَيْبَةٍ، وَتَكُونُ الْأَلِفُ وَاللَّامُ فِي النَّصْرِ لَيْسَتْ لِلْعَهْدِ فِي نَصْرٍ مَخْصُوصٍ، بَلْ هِيَ لِلْعُمُومِ، أَيْ: لَا يَكُونُ نَصْرٌ، أَيْ: نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ لِلْمُسْلِمِينَ عَلَى الْكُفَّارِ إِلَّا لأحد أمرين[3]، وفي هذا التَّعليل إثباتُ الحِكمة لله ﷻ في أفعاله وتشريعاته؛ لأنَّ اللَّام للتَّعليل، والتَّعليلُ هو الحكمة[4].

دلالة تخصيص قطع الطَّرف:

الدَّلالة على التَّوهين والإزالة بتنقيص الشَّيء

القطع في قوله: ﴿لِيَقْطَعَ﴾ هو الاستئصال والإهلاك، والطَّرف، قصد به الطَّائفة أو الجماعة، وتخصيص قطع الطَّرف من حيث إنَّ تنقيص طرف الشَّيء يتوصَّل به إلى توهينه وإزالته[5].

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 2/578.
(2) على سبعة أوجه حرَّرها السَّمين، يُنظر الدّرّ المصون: 3/390.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/337.
(4) ابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين، (سورة آل عمران): 2/113.
(5) الرَّاغب، المفردات: (طرف).

بلاغة استعارة لفظة ﴿طَرَفًا﴾ لطائفة من أشراف المشركين وكبرائهم:

بيان أنَّ الأطراف منازل الأشراف وأنَّ في إهلاكهم توهينًا لأتباعهم

يطلق الطَّرَف في الحقيقة على النَّاحية الَّتي هي مُنتهى المكان، وتسمية المقتولين طرفًا؛ لكونهم هم الَّذين كانوا يلون المؤمنين، فقتلوا، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: 123]، والطَّرَف: هو جانب الشَّيء، وأخذه من أطرافه أسهل من أخذه من وسطه، والمقصود بالطَّرَف: أشراف المشركين وكبراؤهم، فلكونهم أشرافًا في أقوامهم، فقد تقدَّموهم، والأطراف منازل الأشراف، كما يقال، فكانوا أطرافهم ممَّا يلي المؤمنين، فوقع عليهم القطع المهلك، وهكذا كان في بدر، فقد قتل من صناديدهم سبعون، وأُسر آخرون مِثْلُهم من أتباعهم الَّذين لحقهم الخزي والمذلَّة بالأسر[1]، فالطَّرَف مُستعار هنا لأشراف المشركين، أي: ليقطع من جسم الشِّرك أهمَّ أعضائه، فيستأصل صناديد الَّذين كفروا[2]، فيضعف بذلك أتباعهم، ويعودوا بالذُّلِّ والخزي.

دلالة تنكير لفظة ﴿طَرَفًا﴾ في هذا المقام:

التَّفخيم لهذا الطَّرف المُمَثِّل في أشراف النَّاس وزعمائهم

ولا يخفى أن تنكير ﴿طَرَفًا﴾ قصد منه التَّفخيم، فهم طائفة غير عاديَّة بل من رؤوس القوم ومن كبار زعمائهم[3].

دلالة التَّبعيض بـ ﴿مِّنَ﴾ في القطع:

الإشـــارة إلى الحكمة في سُنَّة التَّدافع في هذه الدُّنيا

فقال: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، وليس كلَّ الَّذين كفَروا؛ لأنَّ مِن حِكمة الله أنْ يبقى الإيمانُ والكفر متصارعَينِ دائمًا؛ حتى يَتبيَّن المؤمنُ الخالصُ من غيره[4].

(1) الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/264.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/78 - 79.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/78 - 79، والخنين، النظم القرآني:، ص: 115.
(4) ابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين، (سورة آل عمران): 2/113.

فائدة التَّعبير بالموصول وصلته في وصف الكفار:

التَّنفير من الكفر وأهله وتجاهل أهـــل الـكـفـر ونَبْذِهِمْ

اسم الموصول من أنواع المعارف، ويُؤتى به لأغراض بلاغيَّة دقيقة، منها: أنْ تُضَمَّنَ الصِّلَةُ العلَّة الَّتي يُبنى عليها الحكم بحيث يكون ما في حيِّز الصِّلة أصلًا وأساسًا ينبني عليه المعنى المذكور قبلها، فقد وقع القطع والهلاك على الكفَّار؛ لكونهم مقيمين على هذه الصِّفة، حيث قال تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، فالعلَّة في قطع أولئك الأطراف هو كفرهم ومشاقتهم لله ورسوله، كما بيَّن ذلك سبحانه في الأنفال، حيث قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٣﴾ [الأنفال: 13]، وفي التَّعبير بالموصول تجاهلُ أولئك الأقوام وطيُّ ذكرهم، وكذا التَّنفير من تلك العلَّة الَّتي أهلكوا بسببها، وهي كفرهم وعدم استجابتهم لدعوة الرَّسول ﷺ[1].

دلالة التَّعبير عن القطع والكبت بصيغة المضارع مع كونهما وقعا في الماضي:

استحضار صورة النَّصر العظيم في ذهن السَّامع

فهذا القطع والكبت قد مضيا يوم بدر قبل نزول هذه الآية بنحو سنتين، فالتَّعبير عنهما بصيغة المضارع؛ لقصد استحضار الحالة العجيبة في ذلك النَّصر المبين العزيز النَّظير[2]، وفيه أيضًا إشعار بأنَّ الله جلَّ ثناؤه الَّذي فعل ذلك بهم في بدر في ذلك الزَّمان قادر على أن يفعله بهم وبأمثالهم في أيِّ وقت كان[3].

سِرُّ التَّناسب بين ذكر الكبت والانقلاب بالخيبة:

بيان أنَّ نتيجة الـكـبـت هـو الرُّجوع بالخيبة والخسارة

فقوله: ﴿يَكۡبِتَهُمۡ﴾: يَصرَعهم لوجوهِهم، ويُهلِكهم، وَيُقَال: ﴿يَكۡبِتَهُمۡ﴾: يغيظهم، ويحزنهم، ويُصيبهُمْ بِغَمٍّ وَكَمَدٍ، والأصل الجامع لمعاني الكبت: هو الْإِذْلَال وَالصَّرْف عَنِ الشَّيْءِ، يُقَالُ: كَبَتَ

(1) الخنين، النظم القرآني، ص: 116.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/79.
(3) الخنين، النظم القرآني، ص: 117.

اللَّهُ الْعَدُوَّ يَكْبِتُهُ؛ إِذَا صَرَفَهُ وَأَذَلَّهُ[1]، وهذا بعينه هو الَّذي وقع للكفَّار بسبب محادَّتهم لله ورسوله، وهذا هو السَّبب الجالب للكبت المستوجب له، كما قرَّره الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٥﴾ [المجادلة: 5]، وما حصل في بدر صورة واحدة من صور تلك السُّنَّة الماضية، ونتيجة الكبت معروفة، وهي الرجوع بالخيبة والنَّدامة، ولهذا ناسب أن تكون فاصلة الآية: ﴿فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الطُّمأنينة والسَّكينة:

الطمأنينة نهاية السَّكينة

الطُّمأنينة: هي السُّكون بعد الانزعاج[3]، يُقال: اطمأنَّ الشَّيء؛ إذا سكن، وطمأنتُه؛ إذا سكَّنْتُه، والطُّمأنينة: سكون أَمِن فيه استراحة أُنس، والسَّكينة: صَولة تورث خُمود الهيبة أحيانًا[4].

فالسَّكينة تكون حينًا بعد حين، والطُّمأنينة لا تفارق صاحبها[5]، ومن ثَمَّ تكون الطُّمأنينة موجب السَّكينة وأثرًا من آثارها، وكأنَّها نهاية السِّكينة[6].

وعليه فإنَّ الطُّمَأْنِينة والسَّكِينة كلٌّ منهما تستلزم الأُخرى، لكن استلزام الطُّمَأْنينة للسَّكينة أَقوى من العكس، والطُّمأنينة على درجات: أعلاها طُمَأْنينة القلب بذكر الله[7]، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرعد: 28].

(1) الرَّاغِبُ، المُفْرداتُ، وابن فارس، مقاييس اللغة: (كبت).
(2) الخنين، النظم القرآني، ص: 117
(3) الرَّاغِبُ، المفردات: (طمن).
(4) الهروي، منازل السائرين، ص: 85.
(5) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: 3/517.
(6) ابن القيِّم، مدارج السَّالكين: 2/481.
(7) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: 3/517.

الخيبة واليأس:

الخيبة حرمان بعد توقُّع، واليأس يكون قبل التوقُّع وبعده

الْخَيْبَةُ: هِيَ الْحِرْمَانُ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْخَيْبَةِ وَبَيْنَ الْيَأْسِ: أَنَّ الْخَيْبَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بَعْدَ التَّوَقُّعِ والأمل؛ لأنَّها امتناع نيل ما أمل، والخائب المنقطع عمَّا أمل[1]، وَأَمَّا الْيَأْسُ؛ فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ بَعْدَ التَّوَقُّعِ والأمل وَقَبْلَهُ، فَنَقِيضُ الْيَأْسِ الرَّجَاءُ، ونقيض الخيبة الظَّفر[2].

(1) العسكريُّ، الفروق اللغويَّة، ص: 435.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/355.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس، سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 5 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-57-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 5 : سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-57-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1170694 بتاريخ 2023/03/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»